إصدارات موقع
تعليم التفكير
من منظور إسلامي
١

كيف تصبح مفكراً متمرداً في تسع ساعات ؟!

أ.د. خالد بن منصور الدريس

مدارات الوطن للنشر

ح مدار الوطن للنشر، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدريس، خالد منصور
كيف تصبح مفكرا متمردا في تسع ساعات/خالد منصور الدريس _
الرياض، ١٤٣٦هـ.
٨٠ ص؛ ٢١ سم.
ردمك: ٠_٠٨_٨١٧١_٦٠٣_٩٧٨
١-التفكير ٢-التفكير الإيجابي ٣-التفكير الإبداعي
أ-العنوان
ديوي ٣٥-١٥٣ ١٤٣٦/٢٠٧٨

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٢٠٧٨
ردمك: ٠-٠٨-٨١٧١-٦٠٢-٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

جميع الحقوق محفوظة ©

مدار الوطن للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٢
المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨
ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣ خطوط) - ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦
فرع السويدي - ت: ١١٤٢٦٧١٧٧ - ف: ١١٤٢٦٧٣٧٧
K.S.A /Riyadh 11312 P.O.Box : 245760
Rawdah / Tel : 112313018 Fax : 112322096
Swaidi / Tel : 114267177 Fax : 114267377
الموقع الإلكتروني | www.madaralwatan.com
البريد الإلكتروني | pop@madaralwatan.com
madaralwatan@hotmail.com

إصدارات موقع تعليم التفكير من منظور إسلامي (١)

كيف تصبح مفكراً متمرداً
في تسع ساعات؟!

أ.د. خالد بن منصور الدريس

بسم الله الرحمن الرحيم

يُحكى أن والد أحد العلماء المتقدمين، قال لابنه: (يا بُني أود أن أعتلي على كرسي التعليم والمشيخة، يُحيط بي طلاب العلم كما يحيطون بك في حلقتك يسألونك ويكتبون أقوالك، غير أن حالي في العلم كما تعرفه، لم أدرس كما درست، ولم أجالس العلماء، وليست لدي إجازات)، فأشفق الابن على أبيه، وأراد أن يُحقق له أمنيته، فطلب منه أن يجلس على كرسيه في المسجد، ويقرأ عليه أحد الطلاب من كتاب، وقال له: (إن سئلت عن شيء فقل : هذه المسألة فيها خلاف)!..

وفي يوم تفطن أحد الطلبة النابهين لأجوبته المتهافتة المتكررة، فسأله بدهاء : (أفي الله شك فاطر السموات والأرض)؟! فأجاب المتمشيخ : (فيها قولان) !..

فضج الناس ، وكُشف أمر المتعالم .

تذكّرتُ هذه القصة، عندما عكفتُ على تحليل (خطاب فكري) بدأ يسود في المشهد الثقافي المحلّي، فوجدتُ: أيّ شابٍّ حديث السنّ لديه بعض القراءات الخفيفة (كالوجبات السريعة) يستطيع أن يكون مُفكّراً مُتمرداً يلفت الأنظار إليه بسرعة ويُوصف من بعض المطبلين بالذكاء والعبقرية والإبداع، وعثرتُ أثناء ذلك على مثلث التمرُّد الفكري ، فأحببت أن أشارككم في كشف زيف المتعالمين الذين ارتفع صخبهم في وسائل التواصل الاجتماعي والمقاهي الفكرية وغيرها ، فما هي أضلاع المثلث ؟

أضلاع المثلث:

ولنبدأ الآن في القاعدة الأولى التي يتعلم منها المفكر "اللامع" -زعموا- أصول جذب الأنظار إلى تغريداته أو شذراته ومداخلاته الفكرية.

القاعدة الأولى : (كن معارضاً) غرائبياً أو "خالف تعرف"

المسألة يسيرة جداً بل وقديمة، لكي تنجح في جذب الأنظار عليك أن تخالف السائد والمعروف، خالف كل الأشياء المألوفة.

عليك بنقد المقدسات والتشكيك في صحتها، تهكم على المسلمات الاجتماعية، حطم كل شيء يستحسنه عموم الناس وارفضه بقوة وعارضه بشدة، فإذا عظم الناس مثلاً التفاؤل والنظرة الإيجابية ومدحوهما؛ فعليك أن تهاجمهما بضراوة ، تحدّث بامتعاض عن المتفائلين وتفاهاتهم، وصِفهُم ببلادة الفهم إزاء الإحساس بآلام العالم، وتعجّب من موت ضمائرهم التي تشاهد كل هذه المآسي في العالم من فقر ومرض وموت ونهب وظلم ومع ذلك يتحدّثون ببلاهة عن التفاؤل، ثم اسخر من فكرة الإيجابية كما تشاء، فالمجدُ للساخرين والمستهزئين بكلّ من لا يُشبه فرادتهم وابداعهم !

كن نيتشوياً ومزِّق القيم مُزيفاً !

ومن هنا وجدنا بعضهم يُوصي غيره ممن يستنصحه: لن تكون مُفكِّراً لامعاً إلا إذا تأثرت بشخصية "نيتشه" الذي كان يتفلسف ويُفكّر بمطرقة حطّم بها كل شيء رآه الناس جميلاً ومُهمّاً ، كما قال في كتابه " هذا الإنسان " ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد (ص 174): (إن من يكون مُبدعاً في الخير والشر، يجب أن يكون في البَدء مُدمِّراً، ويُمزِّق القيم تمزيقاً) .

ووصف نفسه بأنه يتفلسف بمطرقة، فأفكاره بمثابة "الشاكوش" الذي يُهشّم به كل شيء تعارف الناس على حُسنه وخيريته وأنه حقّ.

وهكذا يُقال للشاب الحَدَث: لن تكون مُفكِّراً لامعاً حتى تهدم وتدمّر "كنيتشه" وتخالف الناس، فتكره التفاؤل وتهاجم المقدس وتمدح التناقض وتتعشق السير في المناطق المحرمة وتتغزل في القمم الكئيبة المنعزلة .. الخ

المحرمات هي الحقيقة !

ومن نماذج هذه المعاكسة والمخالفة، ما قاله "نيتشه" في (ص 15) في أن كل المحرمات هي الحقيقة التي حُجبت عنك، فإن كنت تبحث عن الحقيقة؛ فعليك أن تقتحم تلك الغابات الممنوعة : (إن ما هو محرم تحريماً شديداً هو دائماً الحقيقة) .

وفي (ص 177) يحذر من قيم الخير ويهجوها كما يهجو الناس الشر، فيقول : (من خلال الخير يصبح كل شيء زائفاً ومعطوباً من الجذور)

ويمضي "نيتشه" في كثير من مقولاته يهاجم فكرة الخير التي يحترمها البشر جميعاً، ويمتد هجومه حتى إلى الإنسان المتفائل الذي يحتقره ويصفه بالمتفسخ ويؤكد أن ضرره أكثر من المتشائم .

كن حاقداً واغضب كـ " الديناميت " !

وفي (ص 173) يقول : (إنني لست رجلاً ، إنني ديناميت) وهذا تكريس منه لفكرة الهدم والتقويض ، والتفلسف بمطرقته المسرفة في التكسير، بل أكثر من ذلك هو يتكلم عن فلسفة تفجر وتنسف، كأشد مواد المتفجرات " الديناميت".

وفي (ص 173) أيضاً يطري عمل المهرج ويجعله أفضل من عمل رجل الدين الأخلاقي : (أعتقد أنني ممتلئ بالحقد ... أنا لا أريد أن أكون قديساً ، إنني بالأحرى أحب أن أكون مهرجاً ، بل ربما أنا مهرج) .

وفي (ص43) يقول : (إن وخز الضمير يبدو لي نوعاً من القيم الشريرة) فما اصطلح الناس على تسميته بتأنيب الضمير، يراه نيتشه من القيم الفاسدة والضارة التي يجب التخلص منها لسعادة العالم وانتصاره .

هل عبقريتك في أنفك كـ "نيتشه" ؟!

وفي (ص 174-173) يقول : (إن عبقريتي تكمن في أنفي !!) وهذا إمعاناً منه في الطرح الغرائبي المعاكس للمألوف ، وماذا سيجد العالم في أنف "نيتشه" من عبقرية يا ترى ؟ ثم يمدح التناقض فيقول : (إني أتناقض بمثل ما لم يتناقض أحد من قبلي)

ولعل هذه المخالفة لكل شيء سائد أو المعاكسة دائماً من أجل المعارضة ، هي أحد أسرار الإعجاب الشديد "بنيتشه" الذي نجده متفشياً في أوساط بعض الشباب لكونه مُلهماً لهم في تعبيد هذا الطريق القصير نحو الشهرة السريعة بأدنى جهد وأيسر مجهود ، وهو إعجاب غير مبرر علمياً وعقلياً لعدة اعتبارات مهمة ربما أعود لها لاحقاً .

تمجيد العفن عند الفيلسوف "العوّاء" !

وعلى شاكلة "نيتشه" في مهاجمة السائد والمتعارف عليه رغبة في الظهور بمظهر المفكر المتمرد المستقل ، وجدنا فئاماً من الشباب والشابات مؤخراً انتشر بينهم الإعجاب الشديد بكتابات الكاتب الروماني الأصل ، الفرنسي الثقافة " سيوران " التي تضج بتمجيد العفن ككتابه " موجز العفن " ، ومدح الحزن واطراء الكآبة والوحدة والتشاؤم ككتابه " على ذرى اليأس " .

لو لم يُولد البشر لكان هذه أمثل صيغة للوجود !

يمارس " سيوران " نوعاً من الإغراق المقزز في التشكي من وطأة الوجود وعبء الحياة وفقدان المعنى ، حيث يرى (ألا نولد هي أمثل صيغة وجود على الإطلاق) ، وأن الوجود الإنساني ما هو سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه . ويقول بكل بجاحة وقسوة : (رؤيتي للمستقبل واضحة إلى حد أنه لو كان لي أبناء لخنقتهم على الفور) ، وتتمحور فلسفته حول هذا المعنى . حتى وصف نفسه بأنه " فيلسوف عَوّاء " أي أنه يعوي بكثرة كما تفعل الذئاب !

تجميل الانتحار وتحسين الاعتقاد بعبثية الوجود !

وفي كتاب " المعنى والغضب : مدخل إلى فلسفة سيوران "

لحميد زناز (ص 72) تطالعنا عبارة "سيوران" :

(ليتهم يدركون السعادة التي يدينون لي بها أولئك الأبناء الذين لم أرغب في مجيئهم إلى هذا العالم) .

ويقول (ص16) : (لا شيء يثبت أننا أكثر من لا شيء) .

وفي (ص 80) يمجد الانتحار ويُجمله جداً ، قائلاً : (فكرة الإنتحار هي الفكرة الوحيدة التي تجعلنا نتحمل الحياة) .

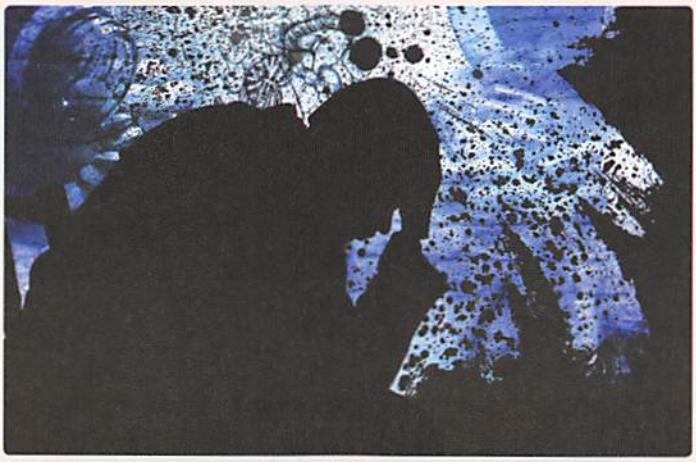

وفي (ص 73) يعلن سخطه من ضيوفه وزائريه مناقضاً فضيلة كرم الضيافة أو فضيلة التهذيب ، فيقول في ذلك :

(سأكتب على مدخل منزلي : (كل زيارة هي اعتداء) أو (ارحموني ، لا تدخلوا " أو ملعون من يدق الباب ") .

وفي (ص 76) يتحسر على فكرة العدم لأنها لم تفهم ولم تقدس كما يجب قائلاً : (وأسفاه على العدم) .

وفي (ص 76) يذم مفهوم الوطنية قائلاً : (إنسان يحترم نفسه لا يمكن أن يكون له وطن ، الوطن صمغ قوي) .

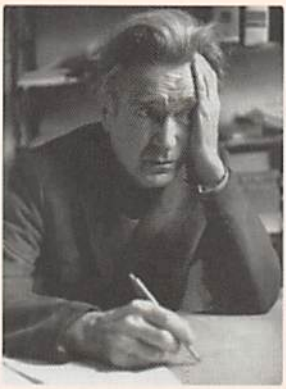

وفي (ص 77) يمجد التناقض بين القول والفعل : (أمضي وقتي في الدعوة للانتحار عن طريق الكتابة، والدعوة لتجنبه عن طريق القول) .

ثم هو يدعو إلى أن يكون الوعي مطروداً في المنافي ، وإلا لم يكن بوعي حقيقي : (عدم الوعي وطنٌ .. الوعيُ منفى)، إلى غير ذلك من الأفكار العدمية والتشاؤمية التي تخالف الضرورات الإنسانية والمألوفات التي تسالم عليها البشر طوال مسيرة حياتهم لفائدتها ونفعها وكونها ضرورية لاستمرار الوجود الإنساني .

(الأفكار العدمية والتشاؤمية التي يدعو إليها "سيوران" ومن على شاكلته تخالف الضرورات الإنسانية والمألوفات التي تسالم عليها البشر طوال مسيرة حياتهم لفائدتها ونفعها وكونها ضرورية لاستمرار الوجود الإنساني) .

مستهلكوا الأفكار المستوردة !

إن "مستهلكي الأفكار المستوردة" من الباحثين عن شهرة سريعة أو من المستلذين بخداع أنفسهم بأنهم مبدعون مختلفون عن الآخرين ، لا يستطيع أحدهم أن يأتي بفكرة إلا أن تكون من الأفكار المغتصبة المسروقة بوقاحة من "سيوران" أو "نيتشه" أو "عبد الله القصيمي" وأشباههم ، فأين الإبداع والعقل المتوهج بالموهبة المختلفة .

إن أي " درباوي " أو " عربجي " يمتلك النظرة ذاتها ، فهو يرى أنه يعيش مهمشاً لغرابته واختلافه وفي واقع الأمر يحمل "فلسفة وجودية " لكنها من نوع آخر والفارق بين الفئتين فارق طبقي اقتصادي ليس إلا ، وهنا أدعو أن تعقدوا مقارنة بين " مستهلكي الأفكار المستوردة و" الدرباوية " وابحثوا عن نقاط التشابه بينهما من حيث الرغبة في إثبات الذات وشد الانتباه عبر التمرد ؟!

(الفارق بين مستهلكي الأفكار المستوردة و الدرباوية ما هو إلا فارق طبقي اقتصادي لا أكثر)

إن الإبداع والشخصية المختلفة تكون محل ثناء واحترام إذا كانت حقيقية منتجة، وتكون كذلك متى زادت في معرفتنا ، أو أضافت إلى الوجود إضافة بناءة مفيدة تساهم في نشر العلم الحقيقي و محاصرة الجهل أو تسعى إلى تعزيز قدرات الإنسان ومنفعته وقوته و تسلحه بأسلحة جديدة تمكنه من محاربة الظلم والمرض والفقر أو تسكب في أرواحنا وأذاوقنا ما يزيد في الإشباع الجمالي والتناغم مع الكون والكائنات ، وما عدا ذلك فهو إبداع مزيف ، واختلاف مثير للشفقة !

الإبداع الحقيقي هو الذي يضيف إلى الوجود إضافة بناءة مفيدة، أو يسكب في أرواحنا وأذاوقنا ما يزيد في الإشباع الجمالي والتناغم مع الكون والكائنات، وما عدا ذلك فهو إبداع مزيف ، واختلاف مثير للشفقة !

(إن أركان الإيمان والإسلام لم تقف يوماً في وجه تقدّم حقيقي أو قوة جديدة نافعة لبني الإنسان، حتى يسوغ القدح فيها بكل هذه الضراوة والرفض) .

إن أولئك لا يقدرون على " إنتاج أفكارهم المبتكرة " ، لقد اختاروا أن يكونوا منسلخين تتمشى بكتيريا الكراهية لذواتهم في عروقهم ، وتسري في دمائهم الرغبة في التنازل عن هويتهم ، بل ربما بلغ الأمر ببعضهم أن يصرح باستعداده لأن يعرض خدماته لخيانة عروبته وإسلامه لأول مشتر أجنبي .

ولذا رأينا وسمعنا تفاقم الهجوم على اليقين والسكينة والاستقرار ، ومدح أضدادها من الشك والقلق والحيرة تماشياً مع رغبات البعض أن يكون مفكراً متمرداً في سويعات قليلة، ومن جراء هذه الآفة رأينا تنامي موجة التشكيك في المقدسات ، مع أن أركان الإيمان والإسلام لم تقف يوماً في وجه تقدم حقيقي أو قوة جديدة نافعة لبني الإنسان ، حتى يسوغ القدح فيها بكل هذه الضراوة والرفض .

ومن مظاهر التطبيق لقاعدة : (كن معارضاً) أي كن غريباً مختلفاً عن السائد ؛ الولع بطرح الأسئلة التي تثير الدهشة لأول وهلة، مع أنها لا تليق بطارحيها لبعدها عن تخصصاتهم، وما ذلك إلا محاولة من بعضهم للظهور بالعمق الفكري والعبقرية الفريدة، ولكي يقال عنه : إنه واسع التفكير في الأشياء والوجود ، ومما يؤكد أنها أسئلة لا تليق بهم ؛ أنهم لا يبذلون أي جهد علمي حقيقي أو بحثي للعثور على الإجابات، وذلك من قبيل :

- لماذا الشمس دائرية وليست مثلثة أو حلزونية ؟
- لماذا القمر ليس له أسنان ؟
- هل الهواء له ذاكرة ؟
- هل ترانا القطة كما نرى أنفسنا ، أو ربما كانت تشاهد الإنسان في صورة دجاجة ؟
- هل تشعر الألوان بوجودها أو ربما ظن اللون الأحمر أنه كالماء بلا لون؟

وهذه أسئلة سهلة جداً لحد التفاهة ، تعتمد على الصور المجازية والتلاعب بالكلمات، ويستطيع أي محترف لغوي أن يطلق العشرات على شاكلتها من مدفع أسئلته وبسرعة فائقة .

(إن كشف القناع عن زيف أولئك القوم، وانتزاع ألاعيب الدهشة التي بهروا بها الكثير من البسطاء في البدايات ليس بالأمر الصعب، بل بمجرد أن تسلط عليهم أضواء الصدق تتلاشى فلاشاتهم أمام نور الحقيقة الساطعة) .

القاعدة الثانية : "كن غامضاً":

يُروى أن لغوياً متنطعاً سأل خادمه سؤالاً غامضاً ، فقال : يا فلان " أصَقعتِ العتاريف ؟ " .

فلم يفهم الخادم شيئاً من هذا السؤال العجيب ، فأراد أن يعامله بالمثل فقال له : " زقفيلم " .

فقال اللغوي : وما "زقفيلم" ؟

قال الخادم : وما معنى صقعت العتاريف ؟

قال قلت لك : أصاحت الديوك ؟

قال الخادم : وأنا قلت لك لم يصح منها شيء .

هذه الطرفة تكشف عن حقيقة أن خلل (التعالي باللغة) يعتري تكوين بعض الشخصيات المهزوزة في ثقتها بنفسها ، وهذا الاضطراب النفسي كان قديم الوجود في البيئة الثقافية والفكرية كما توحي الطرفة الآنفة .

تحدث عن أوضح نقطة بأعقد لفظة !

وهذا هو الضلع الثاني في (مثلث التمرد الفكري): كن غامضاً وتحدث عن أوضح النقاط بأعقد الألفاظ ، كما هو حال الكثير من المتسلقين الجدد على أسوار الفكر ، الذين يرون أنه لا يمكن تحقيق أي مكانة في عالم الثقافة بلا استعمال لغة معقدة كما استعملها بعض الفلاسفة ، وهذا ما جلب الكثير من السخرية لحال هؤلاء " البراعم الجدد " المشترطين لتميزهم الفكري أن ينعكس في تعبيراتهم الغامضة وأساليبهم الوعرة ؛ أسوة بقدواتهم من المتفلسفة .

التأسي بغموض الفلاسفة المحترفين !

يتعمد بعض المفكرين والفلاسفة استعمال العبارات " غير المفهومة " أو المصطلحات المتخصصة سعياً منهم لإيصال رسالة إلى القارئ بأن طرحهم من العمق والتعقيد ما يجعل فهم كتاباتهم من ضروب المستحيل إلا على المحترفين المتخصصين .

وهذا تماماً ما تقوم به " البراعم المتمردة " ، يستعملون "العبارات اللاتينية " ليضيفوا هالة من الغرابة والغموض المعقد على كتاباتهم وأحاديثهم . وقد كشف " نيغيل واربورتون " في كتابه " الفلسفة – الأسس " هذه الحقيقة بعد أن أكد أن الفلاسفة يستعملون في كتاباتهم الكثير من المصطلحات " غير الضرورية " وبلا أي هدف علمي ، ويقول في ذلك (ص 21) : (يميل الفلاسفة المحترفون إلى استعمال المصطلحات المتخصصة من دون أي هدف ، فيستعمل عدد منهم العبارات اللاتينية ، حتى لو كان هناك ما يكافئها من العبارات الانكليزية القادرة على إيصال المعنى).

يكثر الفلاسفة في كتاباتهم من استعمال الكثير من المصطلحات والعبارات اللاتينية وبلا أي هدف علمي ، رغم وجود ما يوازيها من العبارات المفهومة في لغتهم الإنكليزية طلباً للغموض وبحثاً عن الغرابة، تماماً كما يفعل الآن " البراعم المتمردة " ، حيث يستعملون " العبارات اللاتينية " ليضيفوا هالة من الغرابة والغموض المعقد على كتاباتهم وأحاديثهم .

قاموس " الغموض " السريع للبراعم الجدد !

ولهذا توجه الوصية إلى (البُرعم " المُدرعِم ") في عالم الفكر حديثاً ، بهذه الطريقة : إن شئت أن تسير على خطى أولئك القدوات من أساتذة الفلاسفة ، فعليك بنهجهم ، واليك نصيحة تضفي عليك سمات المفكر المتمرد في سويعات :

لا تقل : تربوي ، قل : بيداغوجي .

ولا تقل : غيبي ، قل : ميتافيزيقا .

ولا تقل : المتعاليات ، قل : الترانستدالي .

ولا تقل : تفكير مغلق ، ولكن قل :

دوجماطيقي (دوغمائي) .

ولا تقل : الفهم ، قل : الهرمينوطيقا .

ولا تقل : الجمال ، قل : الاستطيقا .

ولا تقل : اجتماعي ، قل : سيسولوجي .

ثم لا بأس من (حزمة عبارات) لإكمال مظهريتك الفريدة من قبيل: اللوغوس ، الكاوس ، الإمبريقي ، فينومولوجيا ، ميثادلوجيا ، الكولينالية ، الإمبريالية ، الكوسمولجيا ، وأركولوجيا ، والماضوية ، والإنسانوية ، والإرثوذكسية الكهنوتية .. الخ

وكن كما يقول إخواننا المصريون : (فتح عينك .. تأكل ملبن) .. (وطلب الرزق .. يحب الخفية يا خفيف).. فليس هناك أسرع من هذا المسلك لتكون مفكراً متمرداً مختلفاً يُدهش السذج بسرعة البرق !

تكلم بلغة " المشعوذين " !

وقد ذكر " كولن ولسون " في كتابه " ما بعد اللا منتمي " (ص 68) هذا النص الطريف ، مما يؤكد شيوع هذا البلاء اللغوي :

(كتب " براند بلا نشهارد " قطعة رائعة هاجم فيها الأسلوب " الهيجلي " في التعبير : أن تقول بأن " الميجر أندريه " قد " شُنق" فهذا واضح وغير قابل للمناقشة [والميجر رتبة عسكرية تساوي العقيد أو المقدم في البلاد العربية]

أما أن تقول : بأنه " قتل " فهذا أقل وضوحاً ويُسبب جدلاً لأنك لا تدري بأية طريقة قتل ؟

وأن تقول : بأنه " مات " فهذا غير واضح وضبابي ؛ لأنك لا تعرف هل كان موته بطريقة وحشية عنيفة ، أم في حالة طبيعية ؟

واذا أردنا أن نأخذه كأنموذج ، ونسأل الكُتاب أن يكتبوا جملة عنه ، فسنرى " سويفت " و " ماكولي " و " شو " يكتبون بكل بساطة بأنه قد " شَنق " ، و " بردالي " سيكتب : بأنه قد " قتل " ، و" بوسنا كيت " سيكتب بأنه قد " مات " .

أما " إيمانويل كانت " فسيكتب : (بأن وجوده اللا خالد قد جذب نهايته !)

أما "هيجل" فسيكتب هذه الكلمات : (صَمّمت الأبدية المطلقة على أن تحد من استمرار مستقبله ؛ فسلبته وجوده !) .

وبهذا يخيل للقارئ أن المعنى الذي يريده " هيجل " أو " كانت " في غاية العمق والتعقيد ، بينما واقع الحال أن الموضوع برمته يمكن إيجازه في عبارة : الرجل " شَنق " ! فيا للسخرية كم كانوا بارعين ولكن في تصعيب العبارات الواضحة ، وكم كانوا حاذقين ولكن في تعقيد الأساليب الناصعة الجلية .

ولهذا كان " شوبنهاور " يقول عن " هيجل " بسبب ذلك الأسلوب المعقد الغامض : إنه (دجال مشعوذ) إشارة إلى أن المشعوذين عادة يستعملون عبارات " عالم السحر " غير المفهومة ، وكذا الفيلسوف " كارل بوبر" شن هجوماً لاذعاً على "هيجل " وأضرابه من أصحاب التعقيد والغموض.

سنتان ولم يفهم الأستاذ شيئاً !

ومصداق هذا التعقيد في العبارات الفلسفية عند هيجل على سبيل المثال ما وقع بالفعل لأستاذ الفلسفة في الجامعات العربية الدكتور إمام عبدالفتاح إمام المتخصص في فلسفة " هيجل " وأهم مفكر عربي ترجمها وقدمها للقراء العرب فقد قال في كتابه : " تجربتي مع هيجل " (ص 24) وهو يتحدث عن رسالته في الماجستير : (وشرعتُ في قراءة نصوص " هيجل " لمدة عامين دون أن أفهم شيئاً ، ولجأت إلى التفسيرات والشروح ، ولكني لم أتقدم خطوة واحدة)

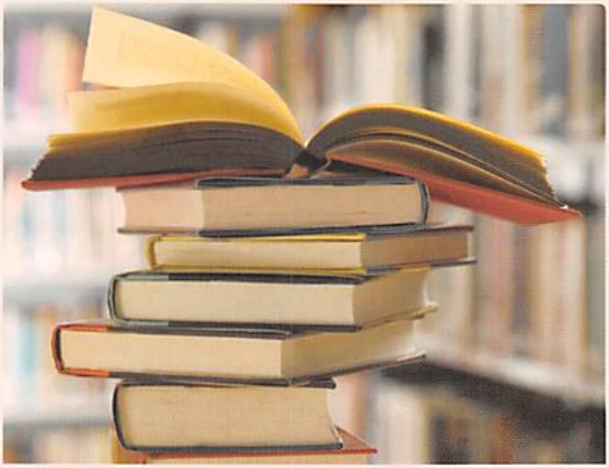

ثم وضح سبب الصعوبة تلك فقال : (ولم أتبين وقتها أن " هيجل " كأي فيلسوف عظيم له مصطلحاته الخاصة ، وأنه قد نحت لنفسه مصطلحات جديدة من ناحية ، وحوّر في معاني المصطلحات القديمة لتناسب أغراضه الفلسفية من ناحية أخرى)

ويأتي د. إمام في (ص 49) ليستعرض مثالاً على الأسلوب الغامض في استعمال المصطلح الهيجلي الواحد فيقول :

(تسعة مصطلحات يمكن أن نذكرها تحت فكرة الوجود ، وهي تترجم على النحو التالي : الوجود – الوجود الآخر – الوجود في ذاته – الوجود للذات – الوجود المتعين – الوجود المتعين بما هو كذلك – الوجود المتعين بصفة عامة – الوجود الفعلي – الوجود بالفعل ..)

برجوازية الانتجلنسيا !

والأدهى أن ذلك التعقيد اللفظي يعزز لديهم مشاعر التقزز من مجتمعهم ، بل الامتلاء " بالقرف " من عموم الناس كما يظهر في فلتات ألسنتهم وشذرات من كتاباتهم ، يريدون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم الأفضل ، فهم ليسوا " من الجمهور " ، إنهم " نخبة " متعالية مثقلة بالغرور والترفع .

ولو شئنا أن نستعير لغتهم المتعالية بكلمات ساخرة لنصف حالهم ، لقلنا : إنهم شريحة "برجوازية من طبقة الانتجلنسيا =(المثقفين) يتسمون بالذوات المتضخمة " تجاه الهموم الشعبية "البروليتارية " = الطبقة الكادحة .

هل أنت من القطيع ؟!

والعجيب أنهم يرفعون عقيرتهم مطالبين بالديمقراطية والمشاركة الشعبية والمساواة بين البشر ، وضرورة احترام الإنسان مهما كان أصله أو فكره ، ومع ذلك يصفون تفكير مخالفيهم بأنه من مخرجات (عقلية القطيع) ، فهل الناس في نظرهم قطعان ماشية ؟! أين كرامة الإنسان عندهم ؟

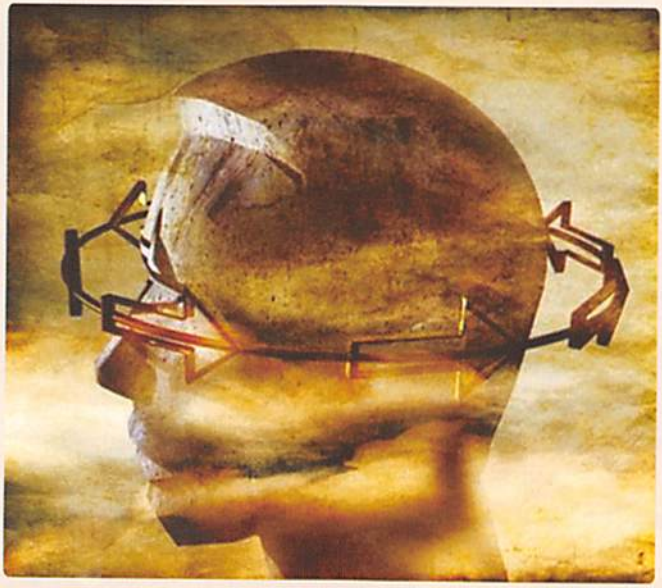

عنصرية تسكن في الأعماق !

إنهم يتصرفون بمثل هذه السلوكيات النخبوية المترفعة ، وكأنهم من طبقة اجتماعية عليا ذات دماء زرقاء مختلفة عن دماء عموم الناس ، ولهذا بدأنا نطالع قول بعضهم : "أي شيء تقبله أغلبية المجتمع يجب أن تتشكك في جدواه" ، وهذا حكم جائر ينضح بفوقية مغرورة تدل على النقص المركب في شخصية قائله ، فالمفترض أن الحكم الموضوعي المتوازن تضبطه مقاييس دقيقة مبنية على مبادئ سليمة لمحاكمة الأفكار وتحديد ما يقبل منها وما يرفض ، وليس على مقياس سطحي كمقياس خالف الأكثرية !

هذه المقولة تتسم " بالمراهقة الفكرية " ؛ لأنها تقبل السهل المريح فكرياً من خلال تحديد موقفها من الأشياء بسذاجة هذا التصنيف التعيس ؛ إنه مقياس سطحي للغاية يحجب عن المغتر به كثيراً من الحقائق بسبب هذا التكبر المنفوخ .

إن هذه التصرفات لدى هؤلاء " البراعم " لشاهد واضح على أن " عنصرية " مقيتة تسكن في أعماقهم !

ولذا أقول : حتى المعرفة توجد فيها تلك " العنصرية الطبقية " المنفرة ، التي تؤدي بمن ساكنته أن يحتقر غيره ويسخر منه بتعبيرات من قبيل ما يطلقونه على مخالفيهم كعبارات : (هم فائض بشري) ، (أو عالة على الكون) ، أو (يجب تطهير الوجود منهم) ، (يا لحقارة فكر إنسان الجموع) ... الخ

القاعدة الثانية : "كُن نسبياً":

سأفتتح مقالتي هذه بطرفة مصرية رواها الدكتور عبدالوهاب المسيري -رحمه الله-، وهي معبرة جداً عن مضمون كلامي الآتي حول مفهوم (النسبية المطلقة).

يُروى أن قاضياً ضجر من متهم يؤتى به دائماً إلى المحكمة لأجل تعاطي الحشيش ، وأراد أن يوقظ ضميره وينصحه ، فقال القاضي : " لماذا تتعاطى الحشيش دائماً ؟ " فقال المتهم : حتى أنسى يا حضرة القاضي ! فسأله : تنسى ماذا ؟ فقال الحشاش : " والله مش فاكر" .

ما سنتحدث عنه في هذه المقالة يُشبه هذه المقولة ، وستجد أن مثل هذا المنطق غير المتسق ، أصبح مطلوباً ، بل وعلامة مميزة للمفكر المتمرد، فهل يعقل أن يكون منطق الحشاشين محل إعجاب المفكرين ؟!

لكي تكون نسبياً عليك أن تنزع القداسة عن كل شيء وأي شيء في العالم !

معنى أن نكون " نسبياً " :

وهذا هو الضلع الثالث من أضلاع مثلث التمرد الفكري : (كن نسبياً)، أي كل شيء في هذا العالم بل وفي الحياة المعاشة لا يمكن معرفة هل هو صواب أو لا ؟ .. عليك ألا تعتنق أي يقين ولا تطمئن إلى أي مُسلمة، وكن كمثقفي (ما بعد الحداثة)، الذين حطموا كل اليقينيات والمسلمات، ووقفوا ضد أي أساس، فالعالم بلا أصل ولا مركز ولا معيار يُحتكم إليه ، عليك أن تنزع القداسة عن كل شيء وأي شيء في العالم ، كما يقتضي مبدأ النسبية المطلقة !

النسبية أن تكون مواقفك زئبقية :

ولتوضيح مراد هذه الطائفة من (البراعم الجدد) من المفكرين المتمردين، سنضطر للعودة إلى فيلسوفهم الأثير "إميل سيوران" فهم يقلدونه بصورة مقززة، بل يحاكون أفكاره ويتمثلونها محاولة منهم للظهور بهيئة المفكرين القلقين لوجودهم وفي وجودهم ، فماذا يقول هذا الزئبقي كما ورد في شذراته التي نقلها : أ.حميد زناز في كتابه: "مدخل إلى فسلفة سيوران":

يرى "سيوران" أن أي يقين هو دجل وكذب، وكل الصدق والنزاهة في أن تكون محتاراً متردداً، يقول في ذلك :

(ترددُنا علامة على نزاهتنا ، أما يقيننا فلا يدل إلا على دجلنا !) .

ويقول في سياق المعنى السابق :

(الآراء نعم ، أما القناعات فلا ، وتلك ركيزة كل عزة فكرية) .

ويُحقر الاقتناع والترجيح ويُثني على التذبذب واللا أدرية ، فيقول : (وحده يملك قناعات ، من لم يتعمق في شيء !) إذن أنت عميق في حالة واحدة أن تكون لا أدرياً شاكاً غير واثق من شيء، وأي إنسان يدافع عن أفكاره يصفه بالغشاش، فيقول: (يُعرف المفكر الغشاش من حصيلة الأفكار الدقيقة التي يُدافع عنها)

ما المطلوب يا "سيوران" إذن ؟

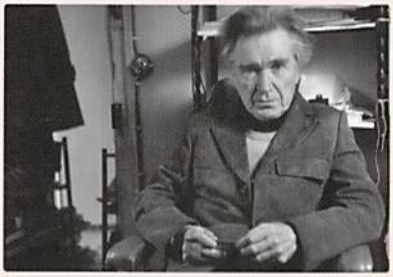

يجيب صاحب كتاب "موجز العفن" : (كُن نسبياً ولا تؤمن بشيء ولا تدافع عن شيء وكن أنت لا شيء)، أليست أفضل صيغة للوجود عنده هي ألا نكون موجودين ؟! .. هذا هو رأيه بلا تحريف .

ويُحذر أن يكون لك أي موقف فكري أو تتبع أي مذهب أو منهج ، فيقول: (المذهب أخطر أنواع الاستبداد في الفلسفة وفي كل شيء) وهذا تقديس صريح للفوضى الفكرية، وعداء جلي للعقلانية المنظمة الواعية .

ويذم الفهم ويُطري الحيرة واللا استقرار، فيقول : (نبدو على هيئة مجرمين في اللحظة التي نعتقد فيها أننا فهمنا كل شيء) وفي السياق ذاته يُمجد "اللا معنى" يقول : (مأساة الكاتب الحقيقية حين يتم فهمه) إذن المطلوب هو ألا يكون لك أي رأي محدد في أي شيء لئلا يفهمك أحد !

ويذكر "حميد زناز" (ص: 66) أن "سيوران" ردد في العديد من المناسبات أنه عمل كل ما في وسعه لخلط الأوراق ، وزرع سوء الفهم بين دارسيه !!

هذا معنى أن تكون "نسبياً " أي تظاهر بأنك لا تفهم شيئاً، ولا أحد يفهم أي شيء ، فالعالم بجملته لا معنى له ، ولهذا فالنتيجة : تقديس " البلاهة " وتمجيد الجهل واللا معنى ، وكل مواقفك زئبقية بامتياز ، تقبل الساعة ما ترفضه بعد ربع ساعة ، ولا حرج عليك .

ثالثاً : أستاذ الجامعة يشرح ما لا يفهمه :

إن واقع الحال السابقة يمكن تصويرها بهذه الطرفة عن ذلك الأستاذ الجامعي الذي كان يحاضر طلابه في إحدى البلاد العربية عن فلسفة "هيجل" فسأله طالب: ما معنى مقولة: "تجسد العقل في التاريخ"؟!، وبعد محاولات متكررة لشرح الفكرة، أصرّ الطالب على أنه لم يفهم شيئاً، فقال الأستاذ غاضباً : (أتريد يا بني أن أشرح لك أمراً أنا شخصياً لا أفقه منه شيئاً !)

أدر ظهرك للعالم وكن كئيباً :

ولننتقل إلى شخصية أخرى تناصر (اللا فهم واللا يقين واللا قيم) هو "نيكولا غوميز دافيلا" في كتابه: "بؤس الديمقراطية" الذي يصرح فيه: (من لم يُدر ظهره للعالم الحالي يفقد كل شرفه).

فالمطلوب ألا تهتم بأي شيء ، أدر ظهرك ولا تبالي بكل شيء أو أي شيء، وكن أنت لا شيء .

وشخصية أخرى "جيرار دو نيرفال" يمدح أن يكون الإنسان كئيباً ويقدم تبريراً لهذه التفاهة : (الكآبة ذلك المرض الذي يجعل المرء ينظر إلى الأشياء كما هي) .

ولك أن تتخيل الإنجازات الكثيرة في هذه الحضارة المادية المعاصرة هل يمكن للكآبة أن تكون هي السبب في إنجازها ؟

هل يملك الكئيب أن يصنع شيئاً مهماً ك "الهاتف الذكي" أو "الآي باد" أو "اليوتيوب" رغم كل الصعوبات والإحباطات التي عادة ما تحيط بالمخترعين في كل خطوة؟

وفكر معي هل التفاؤل بالمستقبل والأمل مفيد لأي مكتشف أو مهندس لينجح في غايته أم أن الكآبة بكل تشاؤمها وقلقها وكسلها وفراغها هي التي تجعله يرى الأشياء كما هي ؟ .. ألا سحقاً لهذا الهراء والعفن ؟!

إياك أن تدافع عن المبادئ :

وقد عبر عن مضمون فكرة (كن نسبياً) الفيلسوف "برتراند راسل" كما ورد في سلسلة حواراته التلفازية التي أجراها "وودرو ويات"، المنشورة تحت عنوان "الفلسفة وقضايا الحياة" (ص 20) حيث قال: (علينا ألا نكون واثقين من أي شيء ، إن كنتَ واثقاً فأنت مخطئ بالتأكيد؛ لأن لا شيء يستحق الوثوق) .

يا لهذا المقياس الفكري العجيب الذي لا يسأل عن دليل القول ولا عن جذوره ونتائجه، وإنما يُعمم بأن "كل واثق فهو مخطئ بالتأكيد" .

إن مثل هذا الكلام جناية حقيقية على أفكار شاب مبتدئ، ولكم أن تتصوروا نتائج الإيمان بالشك إلى هذا الحدّ، هل تظنون أنه سيخرج لنا أناساً يتمتعون بالثقة والعزيمة والقوة ، أما سنبتلى بشخصيات من المهزوزين المترددين الحيارى ممن لا يملكون قوة الاعتقاد وبالتالي لن يكونوا قادرين على قوة البناء والفعل والتأثير الحقيقي في العالم .

الواقع المعاصر يُفنِّد مقولة " راسل " :

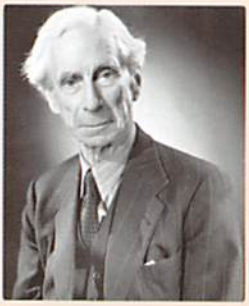

إن أقوى دليل على بطلان مبدأ "راسل" هذا المثال الواقعي فقد حث بشدة داعياً وطنه بريطانيا كما يذكر د.توماس سويل في كتابه (المثقفون والمجتمع) (ص 39) : (إلى نزع السلاح بشكل أحادي الجانب في الثلاثينيات من القرن الماضي بينما كان " هتلر" يعيد تسليح ألمانيا ، وامتدت دعوة "راسل" لنزع السلاح حتى شملت الجيش والبحرية وسلاح الجو ، ومرة أخرى بينما كان "هتلر" يعيد تسليح نفسه على مقربة من بريطانيا) .

تخيل معي صديقي القارئ نتائج مثالية "راسل" الحالمة ولا أدريته المستمرة البائسة، لو أن بريطانيا أخذت بمشورته وفككت جيشها وأساطيلها وقواتها الجوية ماذا كان سيحدث لها في الحرب العالمية الثانية أمام جيوش "هتلر" الجرارة ؟

ووازن ذلك بوثوقية رئيس وزراء بريطانيا وقتها "ونستون تشرشل" الذي كان لا يثق بالنازيين الألمان، وخطب في مجلس العموم البريطاني قائلاً -كما ورد في كتاب: "100 خطاب دمغت القرن العشرين" من تأليف هيرفيه بروكيه وآخرين (1/334-335) -:

(ليس لدي شيء آخر سوى الدم والألم والدموع والعرق ، أمامنا محنة من أقسى المحن .. تسألونني : ما سياستنا ؟ أقول لكم : هي أن نحارب جواً وبراً وبحراً ، بكل قدرتنا ، وبكل القوة التي يعطيها الله لنا ... تسألونني : ما هدفنا ؟ أجيبكم بكلمة واحدة : الانتصار ! الانتصار مهما كلف الثمن .. سآخذ على عاتقي هذه المهمة بكل حماس وأمل)

وفي خطاب آخر يقول : (لن نحذف أي شيء من مطالبنا المحقة ، لن نتنازل عن شيء ولا عن ذرة .. فلنحضر أنفسنا إذن لنقوم بواجبنا) .

أليست الحياة الواقعية مختبراً حقيقياً لإثبات فشل مبدأ " راسل " ؟!

أليست وثوقية "تشرشل" ووضوح رؤيته أقوى دليل على أن اليقين مهم لأي إنجاز بشري مؤثر ؟

عمى الفلاسفة غير متأكد من أي شيء :

وقد عبر "راسل" مرة فقال : (لستُ على استعداد أن أموت في سبيل مبدأ ؛ لأني غير متأكد من أي شيء) ، وفي عبارة أخرى: (لن أموت دفاعاً عن قناعاتي ، فقد أكون مخطئاً) .

إنّ أيّ جبان رعديد يستطيع أن يَستر جبنه وخوفه بمثل هذا المبدأ، ليس لأنه يؤمن به، ولكن لأنه يخدم جبنه وهلعه، وهذا في حد ذاته محك يُسقط صلاحية المقولة للتطبيق.

كن "نسبياً" = كن "جباناً مترددا" :

إن مقولة "راسل" هذه استقالة مريحة من المسؤوليات، تعفي من يتبناها من أي عبء فلن يحارب ظلماً ولن يقاوم شراً !

ولك أن تتصور لو أن مجاهدي سوريا اليوم اعتنقوا مثل هذا الرأي هل سيقاومون الطغيان والاستبداد في بلادهم ؟

كيف سيدفع أي باطل أو ظلم في هذا العالم لو عممنا هذه المقولة الجبانة ؟!

وقل لي بربك: متى كانت الحيرة والتردد والضياع فضيلة؟!

إن "راسل" نفسه يناقض نفسه، فكم خالف عملياً هذه المقولة في أقواله وتصرفاته على مدى حياته .

إن المقولة السابقة مقولة "الجبناء"، أقولها بكل شموخ المسلم الواثق ولدي من "الاستعلاء الإيماني" ما يحملني على أن أقف في وجه أتباع هذا المبدأ لأرد عليهم : كفى هراء فكل قيم الحق والخير والجمال في هذه الحياة تنقض عبثكم وعشوائيتكم المطلقة .

إن هذا المبدأ يتيح لأي "سافل وصولي" يدّعي أنه مثقف أن يُغير مواقفه الفكرية بسهولة كما يُغير جواربه وبدون أن يؤنبه ضميره ؟!

تُراجع إن كنت شُجاعاً :

هلا قال "راسل": إذا ظهر لك خطؤك بالدليل، فكن شجاعاً وتراجع عنه واتبع الحق! ، لو قالها لقبلناها، لأننا لسنا ضد التغيير عند ظهور الأدلة الصحيحة أو المستجدات الموضوعية، فالعاقل يدور مع الدليل في إثبات الأشياء وفي نفيها، ويراجع أحكامه ويحاسب أفكاره، ويتطلب الحكمة من مظانها .

وليس "كل يقين" هو بالضرورة تعصب وانغلاق فكر وجمود، اليقين الحق المستنير بنور القرآن وهدي السنة يرفض التعصب ويحارب جمود الفكر وانغلاقه؛ لأن اليقين الصحيح يعرف حدود "النسبي" فيقبله، ويُسلم بحدود "القطعي" فيتشبث به، ويعلم أن للاجتهاد مساحات كبيرة تدور في حسابات الاحتمالات الترجيحية لا اليقينية، إنه يقين لا يعادي العقل الموضوعي ولا التنوير النافع المفيد .

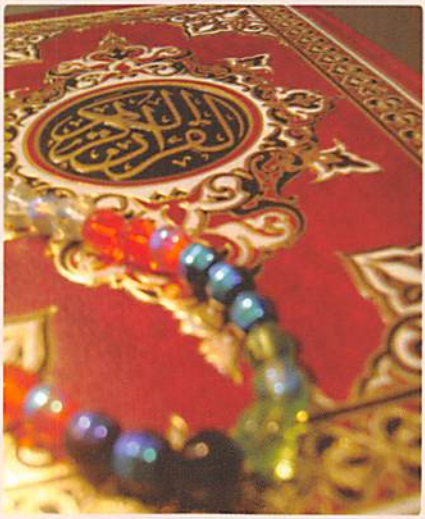

عليكم أن تخجلوا من أنفسكم حين تشوهون "قوة" اليقين والثبات بكل ملوثاتكم المعتوهة تلك .

واأسفاه على العقل :

ثم إن مقولة : (لا يمكن القطع بشيء) تطرح ما يكشف تناقضها، وهو أن هذا الكلام فيه إسقاط لمنفعة العقل والإشادة به .

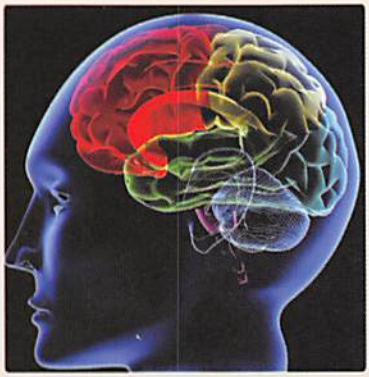

ألستم تبجلون العقل لحد التأليه، إذن ما فائدة العقل إذا كانت وظيفته هي الشك والتردد والحيرة فقط ؟!

هذا عقل عابث لا فائدة ترجى منه، إن أي مراوغ منافق يستطيع أن يستعمل هذا المنطق الأعوج بلا أي حرج أو خجل، وهذا وأد لكل الفضائل التي نعلم بالمشاهدة والحس أنها إيجابية كالشجاعة والثقة والعزيمة والإصرار على مواجهة الظلم والفساد والبغى والفقر والجهل.

إن مثل هذا المنطق الأعرج الأعوج لا يُنتج إلا شخصيات فاشلة هشة متواكلة متمركزة حول ذاتها ، لا تعرف معروفاً أو حقاً أو جمالاً ، ولا تنكر شراً أو باطلاً أو قبحاً ، شخصيات متهشمة مستسلمة لأبعد حد ، كما وصف الله المنافقين :

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)

النساء :143

المنافقون في الحقيقة يُشابهون "النسبيين" و اللا أدريين، ولهذا إذا سئل المنافق في القبر كما ورد في الحديث الصحيح عن خالقه ودينه ورسوله يقول : (هاه هاه ، لا أدري) فقاتل الله هذه المبادئ المنافقة ما أبشعها وأضرها وأشقاها !

الفيلسوف "كانت" يؤكد على أنه لابد للعقل من معايير:

وان كنتم تقولون بالنسبية المطلقة خوفاً على العقل من التحجر والجمود، سأنقل لكم رأي فيلسوف "نقد العقل" في الحضارة الغربية "إمانويل كانت" - في رسالته: "ما التوجه في التفكير" (ص112) ترجمة محمود بن جماعة جماعة - حيث يؤكد على ضرورة أن يكون للعقل قوانينه وأن هذا لا ينافي حرية التفكير.

يقول: (إذا كان العقل لا يريد الخضوع للقانون الذي يسنه بنفسه ، فلا مناص من أن يرزح تحت نير القوانين التي سنها له الغير ؛ لأنه من غير قانون أياً كان ، لا شيء ... يظل زمناً طويلاً على الإطلاق .

فالنتيجة الحتمية لغياب القانون في التفكير - أي التحرر من الضوابط الصادرة عن العقل - هي أن حرية التفكير تتحمل في النهاية تبعات ذلك ، وستضيع بالمعنى الحقيقي للكلمة).

فلا حرية للتفكير بلا معايير وقوانين ، وبدونها لا مستقبل لحرية التفكير إلا ضياعها في متاهات الفوضى والعبث والعشوائية .

إن الحماس لفكرة " النسبية المطلقة " بالصورة التي عرضنا لها ، تعيد إلى أذهاننا مقولة الروائي الانجليزي "جورج أورويل" : (إن بعض الأفكار هي من الحماقة بمكان، بحيث إنه لا يمكن أن يصدقها إلا مثقف).

وهذه حال فكرة أنه لا يوجد استقلال فكري إلا بتبني مقولة "النسبية المطلقة" ، فكرة حمقاء لا يصدقها إلا بعض المثقفين أما عموم الناس فينفرون منها بقوة .

الأندومي ومشكلة الانفجار المعرفي :

وعطفاً على ما تقدم رأينا أمثال هؤلاء البراعم من الوالجين حديثاً لعالم الفكر المتمرد، لا يمتلكون صبراً على استقصاء المعرفة، ولا يتقنون مناهج البحث العلمي ، ولا يفرقون بين أنواع الأدلة والبراهين .

يقول قائلهم : إن ما أقوله اليوم قد أنقضه بعد ساعة، ففي عصر الانفجار المعرفي تتجدد المعلومات في كل ثانية ، لذا أغير رأيي باستمرار.

حسناً أيها الذكي بناء على تعميمك المدهش :

هل الأندومي الذي تأكله يتجدد كل ثانية ؟

هل مسكنك يتجدد كل ساعة ؟

هل حقائق الفلك والرياضيات تتجدد كل يوم ؟!

فترتسم ابتسامة بلهاء على محياه ، ويقول :

(غيرت رأيي في ثانية !)

ألم أقل لكم : مواقفهم زئبقية ؟!.

جئتُ إلى هذا العالم لأحتج :

وقد عرفنا أن "كهنة الفكر المتمرد"عندما ينصحون "المدرعم الجديد" يغوونه بتهويل مبدأ (الاستقلال الفكري) فيزينون له (نسبية الحقيقة) بذلك المبدأ الأخاذ ، وبمتابعتي لبعضهم أستطيع أن أقول ساخراً : إن ما يُنصحون به لا يخرج عما يلي :

صرِّح بكراهة المتدينين كثيراً ولكن لا تنس أن تسخر من الليبراليين أحياناً، وأطلق بعض فكاهاتك على زعماء الملاحدة بين وقت وآخر، كل أسبوع مرة قبل النوم ، واستهزئ بدعاة حقوق المرأة كل شهر مرة، وتهكم على دعاة الإصلاح السياسي والاجتماعي كل يومين قبل المغرب.

حاول قدر الإمكان أن تكون بلا ملامح بلا شخصية أو انتماء، إن الشعار الرئيس هو : ((إنما جئتُ إلى هذا العالم لأحتج)) فإن طبقت هذا الشعار فأنت مستقل بأقل تكلفة، مهنتك أن تحتج فقط، أرأيت كم هو من السهل أن تصبح مفكراً متمرداً ؟!

إن استقلالك هذا سيحير مخالفيك جداً، وستكسب الإعجاب السريع في "تويتر" ومواقع التواصل الاجتماعي ، وتحمي نفسك من أي إلزامات في النقاشات والحوارات .

مُفكر ولكنه كالزائدة الدودية :

أهذا هو الاستقلال الفكري في مفهومكم ؟!

متى كان الاستقلال الفكري يعني ألا تستطيع إكمال كتاب واحد بقراءة نقدية ؟

متى كان الاستقلال الفكري يعني ألا تفكر بعمق وتجذر وتسلسل في فكرة كفكرة التقدم مثلا لتعرف أصولها وارتباطاتها الأفقية والرأسية وتفريعاتها ؟

متى كان الاستقلال الفكري يعني أن تعيش رافضاً لمجرد الرفض فقط بلا فكر ولا نقد ولا بحث ولا استقصاء ؟

لا تضحك على نفسك ولا تخدعها : أنت يا صاحبي كالزائدة الدودية لا ننتبه إليها إلا عندما تؤذينا !!

كل ما تحسنه هو الإيذاء لنفسك وأهلك ومجتمعك بهذا الفكر المفكك المهترئ .

وبهذا تكتمل أضلاع مثلث التمرد الفكري: (كن معارضاً، كن غامضاً ، كن نسبياً) ، كل ضلع له ثلاث ساعات ، بعدها يصبح " البرعم الجديد" وبكل سهولة جاهزاً " للدرعمة" فليبتهج عالم المفكرين المتمردين ، بالمولود الجديد الذي سيحل ضيفاً عليهم ، فما أسرع اللمعان ، وما أسرع الانطفاء، هكذا أيها الأصدقاء وخلال حلقات ثلاث حدثتكم عن (فقاعة الصابون الثقافية) : كيف تصبح مفكراً متمرداً في تسع ساعات !

وفي الختام تذكرت قول "إيريك هوفر" واصفاً حال " المفكرين " إياهم: (إن أحد امتيازات المثقفين التي تدعو للاستغراب، هي أن يكونوا أحراراً في أن يكونوا بلهاء إلى حد كبير دون أن يضر ذلك بسمعتهم)!

انتهت هذه الرحلة يا أصدقائي .. إلى اللقاء وأنتم في أسعد حال !

نقد القول .. وتقدير القائل

من الأقوال المأثورة والمؤثرة ، تلك الحكمة القائلة :

((العقول العظيمة تناقش الأفكار، والعقول المتوسطة تناقش الأحداث، والعقول التافهة تناقش الأشخاص)) .

جواهر العقول د. وصال حمقة (ص182)

سأجعل منها منطلقاً لفكرتي التي أريد أن أتحدث عنها في هذا المقال ، ومحورها : إن المفكر الناصح أو المصلح الصادق مثل الطبيب يهتم بمحاربة "المرض" لا محاربة "المريض"

لأنه يحاول إنقاذه وعلاجه لا أن يقتله ، لهذا أرى أن هناك فرقاً بين نقدنا للفكرة واحترامنا للمفكر، أو بمعنى آخر يجب أن نفصل بين نقدنا للقول ورفضنا له، وبين تقديرنا لشخص القائل من إخواننا وأصدقائنا وأقاربنا.

لا تقل لطفلك : إني أكرهك !

ولكي تتضح فكرة الفصل، أورد هذا المثال من بعض كتب التربية التي تؤكد على حقيقة وهي: عندما يقع طفلك في خطأ فلا تقل له:"إني أكرهك"، فهذه عبارة مدمرة للطفل، تسلبه أهم شيء وهو الأمن النفسي المتمثل في حب الوالدين، ولكن خاطبه بقولك: "إني أكره تصرفك الفلاني"، فيكون حديثك وتوجيهك مُحدداً مقيداً منصباً على قوله الخاطئ أو فعله وليس على شخصية الطفل نفسه، وهذا قريب الشبه جدا من الفكرة التي أطرحها هنا من ضرورة الفصل والتمييز بين رفضنا للقول، مع تقديرنا للقائل.

لماذا نفصل بين القول والقائل ؟

لأن الأفكار ليست هي المفكر بالضرورة، والقول ليس هو القائل حتماً، فكثيراً ما تكون الأفكار السيئة والأقوال الخاطئة هي مجرد آراء قابلة للتغيير والتفنيد، فالشخص قد يقول فكرة ثم يتراجع أو يتخلى عنها في قادم الأيام لاعتبارات موضوعية، أو لأن التجربة الواقعية أمدته بخبرة أكبر ورؤية أوضح، فأصبح رفضه لها ضرورياً ، ثم لننظر إلى أنفسنا وتاريخنا مع الأفكار.

ألم نندفع في ماضينا البعيد أو القريب نحو بعض الأفكار التي ظهر لنا فيما بعد عدم جدواها أو استبان لنا ضعفها ؟

عندما كنا نحمل تلك الأفكار الخاطئة، ألم نكن نحب أن يتعامل معنا المخالفون لنا بعزل أفكارنا السلبية عن أشخاصنا التي تتوق إلى الاحترام والتقدير والاهتمام بها ؟

ألسنا نحمل وقتها الكثير من الأفكار الجيدة والصحيحة ؟

هل من العدل والإنصاف أن تُبغض أو يُقلل من ذكائنا وصدقنا بسبب فكرة أو أفكار محدودة ويتجاهل المخالفون إيجابياتنا الأخرى ؟

ألا يجب أن نعامل الناس الذي نختلف معهم كما نحب أن يعاملوننا به لو كنا نمر بالظروف نفسها التي يمرون بها الآن ؟

لا تلعنوه .. !

ولعل مما يصلح شاهداً على تأصيل فكرة الفصل بين "المرض" و"المريض" ، ما ورد في السنة النبوية من لعن المعصية مطلقاً، ومنعه عليه الصلاة والسلام للعن مرتكبها بشخصه وعينه .

ففي الحديث الثابت عن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالَ: (لَعَنَ اللَّهُ الخَمْرَ، وَلَعَنَ شَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَآكِلَ ثَمَنِهَا).

فهنا لعن عليه الصلاة والسلام شارب الخمر مطلقاً، وهذا بلا شك ذم وتجريم لهذا الفعل، ولكنه عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح آخر لما أوتي برجل شرب الخمر فأمر بجلده الحدّ، قال أحد الصحابة -رضوان الله عليهم- : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال عليه الصلاة والسلام : (لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله) ، فنهى عن لعن الشخص بعينه مع كونه ارتكب كبيرة ملعون مقترفها .

وقد أدرك ابن تيمية -رحمه الله- هذا الفرق القائم على الفصل والتمييز بين مشروعية لعن الفعل بصورة عامة، والنهي عن لعن الفاعل المعين، فقال في منهاج السنة (5/101) : (فنهى عن لعن هذا المعين المدمن الذي يشرب الخمر ، وشهد له بأنه يحب الله ورسوله، مع لعنه شارب الخمر عموماً ، فعُلم الفرق بين العام المطلق ، والخاص المعين) .

اكرهوا المعصية وارحموا العاصي !

وفي تقديري أن الحكمة من عدم توجيه عبارات جارحة للشخص بعينه مع اقترافه لكبيرة من الكبائر يظهر لنا في حديث أبي هريرة عند البخاري (6781) لما أتي بسكران، فأقيم عليه الحد، فقالَ رَجُلٌ مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ فقالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا تكُونوا عَوْنَ الشَّيْطان عَلَى أَخِيكُمْ).

وهنا تتجلى رحمة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في التعامل مع العصاة والمخطئين، وان شئنا أن نتحدث بلغة العصر فيمكن أن نقول : حافظَ عليه الصلاة والسلام على كرامة الإنسان المخطئ واحترم فيه جوانب إيجابية مهمة كحبه لله ورسوله، ولم يُهمل ذلك عند نظرته له مع كون الشخص قد ارتكب كبيرة توجب اللعن، وقد نبه عليه الصلاة والسلام أن إهانة العاصي لفظياً قد تفتح أبواباً من الشر تتسرب إلى وجدانه فيتعمق الانحراف في نفسه أكثر وأكثر، وخوفاً من ذلك جاء التوجيه النبوي بألا نكون عوناً للشيطان على إخواننا.

لا يلزم من تكفير القول أن يكفر القائل !

وكشاهد تأصيلي آخر على تبني فكرة "الفصل" بين حكم القول وحكم القائل ؛ يذهب المحققون من أهل العلم إلى أنه : لا ينبغي يُطلق على قول بأنه كفر، أن يُحكم على كل من قال به من المسلمين بأنه كافر، إلا إذا تحققت الشروط وانتفت الموانع في حقه، وفي تقرير ذلك يقول أبو العباس ابن تيمية : (حقيقة الأمر فى ذلك : أن القول قد يكون كفرا ، فيطلق القول بتكفير صاحبه ، ويقال من قال : كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها) مجموع فتاوى ابن تيمية (23/345)

ويقول أيضاً : (المقصود هنا أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين) . مجموع فتاواه (23/348)، يقصد بالنوع أي: القول، ويقصد بالعين أي: الشخص القائل بعينه .

ولهذا ذهب علماء السلف إلى أن قول : القرآن مخلوق يعد كفراً، ولكنهم لم يكفروا كل من نطق به وتبناه بعينه وشخصه، فالإمام أحمد بن حنبل يحكم بأن مقولة: القرآن مخلوق تعد كفراً، ولكنه لم يكفر الخليفة المأمون وولاة الأمر من بعده ممن أظهروا القول بتلك المقولات، مع أنهم قد سجنوه وعذبوه وجلدوه، **فهل هذا يعد تناقضاً منه رحمه الله كما قد يتوهم البعض ؟**

الجواب: لا ؛ لأن الإمام رحمه الله يرى أن تكفير الشخص المعين المحدد كالمأمون يتطلب تحقق شروط وانتفاء موانع، وقد تتخلف بعض الشروط فلا يصبح تكفير الشخص المعين وجيهاً، وعندما تتوفر كل شروط تكفير المعين، ينظر العلماء في موانع التكفير أي أشياء مثل الإكراه أو الجهل أو التأويل الخاطئ ، فيعذرون المعين بذلك مع تفصيلات ليس هذا محلها .

وفي ذلك قال أبو العباس ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر مذهب الإمام أحمد في هذه المسألة: (ما كان - يعني أحمد بن حنبل - يُكفر أعيانهم، فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به ، والذى يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط ، والذى يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى فى الآخرة وغير ذلك ويدعون الناس إلى ذلك .. فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم ؛ لعلمه بأنهم لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا فأخطأوا ، وقلدوا من قال لهم ذلك) . مجموع فتاواه (23/348-349)

هل يوجد سمين بلا مرض ؟

ولكي أقرب المسألة أكثر لغير المتخصصين أقول: كلنا نعلم الآن مقولة الأطباء: "البدانة وزيادة الوزن سبب رئيس لأمراض القلب الخطيرة المميتة"، ولكن هل بالضرورة كل شخص "سمين" يكون مصاباً بتلك الأمراض، هناك أشخاص كثر من البدناء لم يصابوا بتلك الأمراض القاتلة، وذلك يعود لعدم وجود أسباب تحقق المرض صحياً، أو لوجود موانع صحية كثيرة قائمة لدى أولئك الأشخاص تجعل أمراض القلب لا تؤثر فيهم .

وبهذا تكون المقولة: البدانة قاتلة تشبه – نوعاً ما - مقولة خلق القرآن كفر، ولكن لا يلزم أن كل بدين هو بالضرورة الحتمية مريض بمرض مميت، لعدم توفر بعض الأسباب أو لوجود موانع تحول دون ذلك ، وهذا ليس ببعيد من قول العلماء : لا يكفر المعين إلا بعد تحقق الشروط وانتفاء الموانع .

إذن هناك فصل بين القول والقائل، وتفريق بين إطلاق الحكم نظرياً وتطبيقه على شخص بعينه تحديداً .

نناقش أفكاراً لا أشخاصاً !

وبالنظر إلى ما تقدم أقول: إني عندما أناقش أي قول فإن طريقتي في ذلك أن أنخرط بصورة كاملة في تصوره والقيام بفحصه نقدياً؛ لأعرف مزاياه وعيوبه، وأسبر أغواره مكتشفاً محاسنه ومساوئه، وأعرضه على واقع الحياة العملية لأشاهده يتحرك صعوداً ونزولاً وفي كل الاتجاهات، فإن توصلت إلى قناعة كافية بصلاحيته سأقبله مستنداً على الحجج والبراهين، وإن رفضته لمصادمته للمبادئ الفكرية المنسجمة مع القيم، أو لقصور في أدلته أو غلبة جانب السلبيات فيه ، فعلي أن أحدد طبيعة رفضي .

فإن كان القول ينهض على أساس واه فهو كالمرض المميت للفكر أو كالعدو المحارب لسلامة تصورات العقل وأحكامه، وهنا سأقاتله بكل ضراوة وبلا أدنى هوادة، وهذا ما أفعله حين أناقش بعض الأفكار كمبدأ النسبية المطلقة الداعي إلى نزع القداسة عن كل شيء مقدس .

لكن المحرج حقاً هو أن بعض الأصدقاء أو المقربين ممن صرحوا بذلك القول أو كتبوه قد يسبق إليهم سوء الفهم، فيظنون أن هجومي على القول وبنائه الفكري، كان يستهدف الانتقاص من أشخاصهم، مع أن مناقشتي للفكرة ليست في حضورهم ولم أتعرض لأسمائهم من قريب أو بعيد، والفكرة نفسها شائعة وتتردد بكثرة، ثم هم يعلمون أني أحتفظ لهم بتقدير شخصي بسبب ما يتصفون به من خصال مميزة ولأنهم يحملون العديد من القيم الإيجابية التي تجبرني على احترامهم ومودتهم .

كل ما في الأمر أني أناقش الأفكار على فرضية: أني قد أقبلها بعد الفحص والمناقشة، لهذا فواقع الحال: هذه الحماسة التي تشعرون بها في مقالاتي أحيانا لا تفسير لها إلا لأني أناقش نفسي، وأحاور عقلي، وأتجادل مع عالم أفكاري لا أشخاص أصدقائي.

والطريف في الأمر أن أولئك الأصدقاء كتبوا أشياء أو قالوها ضد أفكار أنافح عنها، ومع ذلك لم أغضب منهم أبداً، فلا يتطرق إلى نفسي أني المقصود لذاتي، ولا أقوم بعمليات إسقاط نفسي، وأقول: هذه إهانة موجهة لي !

قليلاً من الإنصاف أيها الأصدقاء .. !

قليلاً من العقلانية أيها الأصفياء .. !

الحرب على المرض لا المريض !

لذلك أقول لنفسي دائماً يا أيها الفقير إلى رحمة خالقك :

اكره الخطأ ، ولكن لا تكره المخطئ .

أبغض بكل قلبك المعصية، ولكن ارحم العاصي .

انتقد القول، ولكن احترم القائل .

أرفض الفكرة، ولا ترفض كل ما عند المفكر .

لن أفتر عن تذكير نفسي دائماً : إن مهمة الطبيب أن يقضي على "المرض" لا على "المريض"، فهدفي أن أعالج جزئية المرض فقط لأنقذ الشخص ككلّ ، فإن لم أميز بين المريض ومرضه فسأقتل المريض نفسه، وسأقضي على كل شيء جهلاً وبغياً، وبهذا تتحول المصلحة الخاصة إلى مفسدة عامة، وينقلب النفع الجزئي الذي أردته إلى ضرر كلي لطالما تحاشيته، وهذا ما لا أريده بكل تأكيد .

(إن أحد امتيازات المثقفين التي
تدعو للاستغراب ، هي أن يكونوا
أحراراً في أن يكونوا بلهاء إلى حد
كبير دون أن يضر ذلك بسمعتهم) !

إيريك هوفر
واصفاً حال " المفكرين "

@KhalidMAlDrees
www.tafkeeer.com
facebook.com/tafkeeeer
info@tafkeeer.com

كيف تصبح

مفكراً متمرداً

في تسع ساعات

؟!

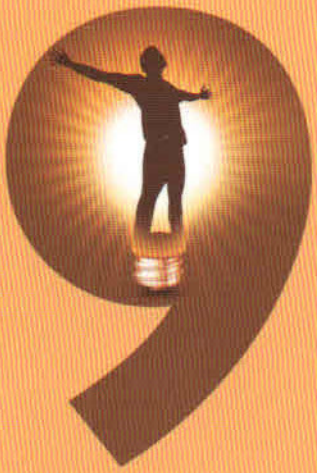

"

إن أحد امتيازات المثقفين التي تدعو للاستغراب، هي أن يكونوا أحرارًا في أن يكونوا بلهاء إلى حد كبير دون أن يضر ذلك بسمعتهم ! .

إيريك هوفر

واصفًا حال " المفكرين"

@khalidMAlDrees

www.tafkeeer.com

facebook.com/tafkeeeer

info@tafkeeer.com

نورة بنت مسفر القحطاني